فما تركا من حيلة يعرفانها ولا سلوة الاَّ بها ستباني
وقالا شفاك الله والله مانثا بما تشتكي منك الضلوع يدانِ
والعرافة ضرب من الخرافات كما لا يخفى امين ظاهر خير الله

ظاهر العمر

(تابع ما قبلهُ)

ولما اجازت الدولة لابي الذهب الزحف على سورية تجهز لذلك بما استطاع اليهِ سبيلاً من جمع الجند وعقد الالوية وحشد الذخائر والمؤن وخرج من مصر بستين الفاً على قول الامير حيدر فارتجّت لهُ البلاد وهلعت القلوب. اما ظاهر العمر فانهُ بعث الى يافا ابن اخيهِ الشيخ كريم الايوب بجماعةٍ من عسكرهِ سماهم المرادي بالنداوية فاقاموا في قلعتها حتى جاءهم ابو الذهب وحاصر المدينة وضربها بالقنابل ستين يوماً فملكها واسرف في قتل حاميتها ورجالها وكان ظاهر قد لبث في عكاء يزيدها تحصيناً ويذدخرفيها الاقوات ومهمات الحرب فلما وردهُ نبأُ امتلاك يافا انقبضت نفسهُ وبعث يستحضر الامير يوسف الشهابي وهو يومئذٍ في بيروت فعقد الامير ديواناً من عظماء لبنان واستشارهم في الامر فلم يروا من السداد اسعاف الشيخ ظاهر خشية من بأس ابي الذهب الاَّ ان الامير يوسف تلطّف في الجواب وضمّنهُ رسالةً لابي الذهب استعطافاً لخاطرهِ على الشيخ ظاهر فابى هذا ان يقدمها لابي الذهب لانهُ علم انها تذهب صرخةً في واد

وتابع ابو الذهب زحفهُ حتى صار في ضواحي عكاء تخرج ظاهر منها باولادهِ وعيالهِ وما يملكون وصحبهُ في فرارهِ الى صيداء احمد هاشم القبجي الذي كان قد حمل اليهِ فرمان العفو والولاية واقام عندهُ مكرّماً حتى وقعت هذه الغزوة ولما علم الناس بفرارهِ هلعت قلوبهم وفرَّ الشهابيون من بيروت الى لبنان اما الامير يوسف فارسل الى ابي الذهب كثيراً من الهدايا وكتب اليهِ يستعطف خاطرهُ ويطلب منهُ الامان فاجابهُ الى ذلك

واراد ظاهر الاجتماع بالامير يوسف لعلهُ يتنعهُ على مواثقتهِ فكتب اليهِ بموافاتهِ الى جسر صيداء فخاف الامير غائلة هذا الاجتماع فاباهُ معتذراً

وكان من الشيخ علي بن ظاهر العمر بعد ذهاب ابيهِ الى صيداء وقبل وصول ابي الذهب الى عكاء انهُ قصدها واخذ ما فيها من السلع والبضائع لاسيما ما كان منها في خان الافرنج فاغتاظ ابو الذهب من جراء ذلك وسعى في القبض عليهِ فما نال منهُ اربًا وقال قولتاي ان

علياً حسب ابا الذهب من اصدقائهِ لما كان بينهما من العهود اثناء امرتهِ على جيش علي بك ولذلك تخلّف عن ابيهِ حين برح عكاء واقام فيها حتى اوجس من ابي الذهب خيفةً فرحل

اما الشيخ ظاهر فلما رأى انفرادهُ وان حلفاءهُ الذين كان يشدّ بهم ازرهُ قد ابتعدوا عنهُ في ايّان هذه الشدة ولم يجد من نفسهِ قدرةً على مواقفة ابي الذهب خرج بعشيرتهِ من صيداء الى صفد فحوران ونزل ضيفاً على عرب عنزة ولما برح ظاهر صيداء بقي على حكومتها متسلمهُ احمد اغا الدنكربي رئيس فرقة المغاربة تخاف هذا غائلة عصيان ابي الذهب فاسرع بعد فرار مولاهُ الى مراسلة ابي الذهب في قيامهِ على طاعتهِ فسرّ بذلك وامّنهُ وارسل متسلماً من قبلهِ الى صيداء ومعهُ مئتان من الغز

واما المتاولة فانهم كانوا في جملة الذين خذلوا ظاهراً ولم يجسروا على مخالفة ابي الذهب حتى ان زعيمهم الشيخ ناصيف النصار لحق بهِ وقدّم لهُ عشرين جواداً فقبلها ابو الذهب وطيب خاطرهُ ولكنهُ لم يسمح لهُ في الرجوع الى بلادهِ او يأتي سائر مشايخ المتاولة ويؤدوهُ الطاعة

وخلت البلاد لابي الذهب فاستولى على صفد وما اليها وهدم قلعة دير حنا ومار الياس الكرمل وقتل رهبانهُ وبعث رجالهُ حكاماً وحاميات الى البلاد المسلمة لهُ

ولكنهُ بينما كان في طغيانهِ وجبروتهِ خرّ مغشياً عليهِ ثم افاق وقد جحظت عيناهُ وجعل يزمجر ويصيح ردوا عني الشيخ الغضوب وما زال كذلك حتى قضى نحبهُ فتناقل الناس بشائر موتهِ وسرّوا ايما سرور حتى نظم السيد احمد البربير شاعر العصر بيتين قال فيهما

لما دنا نيل المنى والهم عنا قد ذهب
والسعد اقبل نحونا ارخت مات ابوالذهب

واختلف الناس في سبب موتهِ فذهب قومٌ الى انهُ اصيب بمرض فجائي وقال آخرون ان ظاهراً بعث من دسّ لهُ السم في طعامهِ

ولما مات ارتدّ جيشهُ ورجالهُ من مواضعهم وحملوهُ الى مصر واغتنم الشيخ ناصيف النصار فرصة الاضطراب في جيش الغز فنهب كثيراً من الاموال والذخائر وحملها الى بلادهِ وكانت رسل الامير يوسف قادمةً لابي الذهب بهدايا وتحف فلما عرفت بموتهِ رجعت الى مرسلها وطمع المتاولة بالغز قبل رحيلهم من صيداء فحملوا عليهم واقتعوا فانكسر المتاولة ورجع الغز من المتاولة سالمين

وما لبث ظاهر ان عاد بعشيرتهِ واسترجع بلادهُ واقام فيها احكامهُ ورجالهُ على ما كان من امرهِ فيها قبل فرارهِ الاّ ان ذلك لم يكن طويل الامد لان الدولة كانت قد صممت من قبل على كبتهِ فلما علمت بمصرع ابي الذهب وارتداد عسكرهِ جهزت اسطولها تحت امرة حسن

باشا الجزائري فلما بلغ مدينة صيداء ارسل ظاهرٌ في اداء المال السلطاني الباقي عليهِ فبقي على عمالتهِ على ان ظاهرًا كان قد مَلَّ الحرب لبلوغهِ التسعين من عمرهِ ولانهُ رأى ان الروس صاروا على وشك مصالحة الدولة العلية بحيث تنقطع امالهُ من مساعدتهم وتفرغ الدولة لاقتناصهِ ومعاقبتهِ فرغب في موادعة رجال الدولة واجابتهم الى الاخلاص في الطاعة غير ان لكل شيء آفة من جنسهِ ذلك ان بنيهِ كانوا ما برحوا يتقمون عليهِ ما سبق الالماع اليهِ من امهالهِ تعيين خلفهِ منهم وامساك التوسعة عليهم في المال حتى انهُ كان لا يتخذهم للاستعانة بهم في القتال دون ان يصغي الى مشورتهم او يعمل بما يريدون وانما كان موضع سرهِ ومشيرهُ رجل اسمهُ ابرهيم الصباغ وقد اتخذهُ قيمًا على اموالهِ وارزاقهِ ومدبرًا لتجارتهِ وازدادت ثقتهُ بهِ بنسبة ابتعاد ابنائهِ عنهُ في آرائهم واعمالهم فكان كلما انس منهم استيحاشًا ازداد للصباغ اقترابًا وبهِ ثقةً ورأى الابناء ذلك من ابيهم فزادوهُ جفاء فاصبحت ثقة ظاهر محصورةً بالصباغ وصار الاستيحاش منهُ عامًّا بين رجالهِ واخصائهِ وزاد الحال شدةً حين حسدوا الصباغ على تزايد ثروتهِ المستمرة تحت ثوب الفقر المدقع

فلما وردت مراسلة امير البحر جمع ظاهر ابناءهُ ورجالهُ وتلاها عليهم فدارت المذاكرة واحتدم الجدال اذ ان بعضهم رأوا السداد في وجوب اداء مال الدولة العلية وفاء للعهود وابقاء على ما بايديهم من البلاد فمال ظاهر الى قولهم ولئن قال بعضهم بمناهضة امير البحر وقتالهِ

فلما سمع ابرهيم الصباغ بما كان من رأي مولاهُ انكر وجود مال يكفي مطلب الدولة فانبرى لمحاجتهِ احمد اغا الدنكزلي الذي كان متسلمًا في صيداء وقال اعطني مئة الف درهم احملها الى حسن باشا ولا ارجع الاَّ بعهد الامان وتقرير الولاية وفوق ذلك اعلم يا ابرهيم ان سيف الدولة طويل والخروج عليها عسير وليس مما يستطيعهُ كل انسان ولا يرضى بهِ الناس فاجاب الصباغ ليس عند الشيخ الاَّ سيف يلمع ونار تسطع وقام من المجلس وانصرف

فلما رأى الدنكزلي ان ظاهرًا مال الى الصباغ ورأيهِ خرج مغضبًا واذ كان رئيس المغاربة الذين في خدمة ظاهر وبايديهم القلاع والحصون قصد اتباعهُ وابناءهم بغرور القوم وان الخروج على الدولة حرامٌ في الاسلام واوعز اليهم ان يعطلوا المدافع فلا تُضرب سفن الدولة بايديهم واذا جاءهم احدٌ من رجال ظاهر لا يمكنوهُ من الدخول اليهم وكتب الى حسن باشا يخبرهُ بما كان وكان الباشا قد استبطأ الجواب من ظاهر فاقلع بسفنهِ نحو عكاء فلما اقبل عليها واطاق القتابل اراد ظاهر ان يقابلها بمدافعهِ واوعز الى المغاربة ان يفعلوا فاجابوهُ حاشا للهِ ان نقاتل سفن الدولة فامرهم ان يخرجوا من الابراج فابوا واخبروهُ انهم عطَّلوا المدافع حتى لا تصلح

للضرب فلما علم بذلك وهت عزائمهُ فرأى ان يولي الادبار فركب وقصد باب المدينة واذا بمدفع من صوب النار عليهِ واطلقها فاصابهُ ورماهُ ميتًا

اما اولادهُ فكان قد ارسلهم لحشد العساكر من البلاد فلما علموا بقتلهِ فرُّوا الى جبل عامل ملتجئين الى الشيخ ناصيف النصار زعيم المتاولة

واراد ابرهيم الصباغ ان يفرَّ كمولاهُ فما استطاع بل اختبأ في منزل رجل يقال لهُ علي درويش حتى اذا فاز حسن باشا بدخول عكاء واستولى على اموال ظاهر وتحفهِ من مستودع الصباغ وقيمتها على ما قال الامير حيدر زهاء اربعين الف الف درهم نقودًا غير الخيول والسلاح والتحف وغير الحدائق والبساتين والدور والحوانيت التي ضبطها طلب الصباغ فسلمهُ مضينهُ علي درويش فعذَّبهُ كثيرًا حتى اعترف بكل ما يعلمهُ من اموال ظاهر ثم امر بهِ فشُنق في احدى السفن

ولقد مرَّ بنا خبر مقتل ظاهر العمر ولم نقل في وصفهِ شيئًا مع انهُ جديرٌ بالوصف اذ كان من افراد الرجال في الشجاعة والفروسيَّة ومعرفة ابواب الحرب حتى قال فيهِ فولناي انهُ مرَّ على سورية زمنٌ طويل لم ترَ لهُ مثيلاً

وقد كان مقتدرًا في السياسة وفيهِ حكمةٌ والمام ولولا اطماعهُ الزائدة وتشوّفهُ الى ما فوق قدرتهِ لما خابت مساعيهِ على انهُ كان يكره التحيل والدهاء ويختار الاجهار بمنوياتهِ ولو تكلَّف ما لا يُطاق وكانت العدالة ضاربةً اطنابها في بلادهِ لا فارق عندهُ في شمولها اهل المذاهب المختلفة

اما اولادهُ الذين التجأوا الى جبل عامل فقد راسلهم حسن باشا للرجوع اليهِ وامَّنهم على ارواحهم وما يملكون واوعز اليهم انهُ يقلّدهم مناصب ابيهم تحت طاعة السلطان فاجابوهُ الى ذلك ونزلوا اليهِ وهم عثمان وسعيد واحمد وصالح اما اخوهم الاكبر علي فكان في دير مار يوحنا آمنًا اذ لحق بهِ مغاضبًا اباهُ قبل وقوع هذه الحوادث فلما وصل ابناء ظاهر الى الباشا امر بتوقيفهم واذ فرط من احدهم سعيد كلام ضد الدولة العلية امر بهِ فقُتل ثم اخذ اخوتهُ في السفن ونقلهم الى الاستانة الاَّ عثمان فانهُ جعلهُ شيخ البلد في عكاء

وتولى عكاء بعد ذلك احمد باشا الجزار المشهور فرأى ان يتعقب عليًّا كبير ابناء ظاهر العمر فزحف عليهِ والتفَّ حول علي كثير من الجند والاتباع فلم يقتدر على الثبات طويلاً تجاه عسكر الجزار لا سيما بعد ان قُتل ابناهُ الحسن والحسين فتخلَّص عن الحرب وقصد العزلة في بلاد الشوف لكنَّ الامير يوسف الشهابي منعهُ من سكناها فقصد بلاد ناباس وهنالك اجتمع عليهِ كثيرون من الناس فكتب الجزار الى باب الدولة يشكو والي الشام محمد باشا العظم بانهُ

اجار علي الظاهر في بلاده فلما علم محمد باشا بذلك بعث رجلاً من اخصائهِ اسمهُ علي اغا القبصرلي متظاهرًا بعداء الوالي فلما وصل اليهِ قتلهُ اغتيالاً فبعث الباشا برأسهِ الى دار السعادة

اما عثمان بن ظاهر فاقام في عكاء سنةً بمنصب شيخ البلد ثم عزلهُ حسن باشا واخذهُ الى الاستانة فاقام ثمة على خدمة الدولة نحوًا من ست سنين علي غير منهاج ابيهِ فسرَّت الدولة بهِ وارسلت من قبلها مباشرًا مخصوصًا سنة ١١٩٦ الى صيداء فاخذوا عيالهُ منها الى بروسه وكانت عدتهم ثلاثين نفرًا ونال رتبة ميرميران ومنصب خداوندكار مؤبدًا على ان يقوم باود عياله واخوتهِ وان يخصص من دخلهِ ثلاثة آلاف غرش في السنة لاخيهِ الشيخ احمد (روى ذلك جودت باشا ونوفل نوفل)

وخلَّف علي طفلين نبغ احدهما شاعرًا مشهورًا اسمهُ فاضل بك وكذلك نبغ من ابناء الشيخ احمد شاعر مجيد اسمهُ يوسف خالص بك ذكرهُ جودت باشا ايضًا

ثم تبعثرت الاسرة بكرور الايام وتقلبات الدهور واحط الدهر علي بعضهم حتى اضطرت بعض مخدرات هذا البيت الى التسوُّل علي ما قال الامير حيدر في تاريخهِ فسبحان من يبدو الامر . انتهى

جرجي يني

الاخصاء

اذا اجال المستبصر طرفهُ فيما انتهى اليهِ ارتقاء العلم على اختلاف ضروبهِ في بلاد الغرب وقاسهُ بما وصل اليهِ في بلاد الشرق من الاضمحلال بعد ان كان في اعلى درجات الارتقاء على عهد الخلفاء الأمويين بالاندلس والفاطميين بمصر والعباسيين ببغداد لا يُتمّ في الغالب ان ينسب ذلك التميّز للاخصاء وحو تعلم علم واحد واختصاص كل طائفة من الناس بما تنصرف وجهتهم اليهِ ويرون الخير في خدمتهِ من اسباب العلم ومقوّمات الحضارة . وقد يظن بعض من لا يعرف دروس الغرب واساليب القاء العلوم في مدارسهِ المتنوّعة ان كل من اشتهروا وتميّزوا بفنٍ ونالوا حظًّا وافرًا من علم نافع لا لتعدّي معارفهم حدود ما هم بسبيلهِ فالفيلسوف لا يحسن بزعمهم الانشاء والمنشيء لا يعرف التاريخ والطبيعي لا يحسن الرياضيات والالهي لا يذوق الاجتماعيات والسياسي لا يدرك الاقتصاد ولكن ليس الامر على ما يذهبون اليهِ

سألتُ يومًا احد المبرّزين في علوم الاوائل والاواخر من المشارقة لِمَ كان الاخصاء في الغرب نافعًا ولا يتأتى الانتفاع بغيرهِ ولِمَ لا نجد في بلادنا اهل إخصاء فقال التخصيص لا يظهر